انشقاق الجبهة الامريكية يستوجب وحدة المقاومة

كمال مجيد*

■ لقد جاء خطاب الرئيس الامريكي جورج بوش في 2007/1/10 ليظهر لا فشل امريكا في عدوانها على العراق فحسب بل ليفضح الانشقاق العميق الذي يعم صفوفه. فمثلاً:

1ـ قبل كل شيء رفض بوش الاشارة، كعادته، الى الحكومة المنتخبة في العراق بل على العكس حذر «المالكي وقادة العراق الآخرين» وأنذرهم بأن السياسة الامريكية في العراق «ليست بدون حدود» فمن الضروري التمسك بالخطة الجديدة للسيطرة على بغداد وطرد المقاومة منها بما في ذلك جيش المهدي للقائد الشاب مقتدى الصدر. بل ذهبت وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس لتعلن أمام مجلس الشيوخ الامريكي عن كون «حكومة المالكي تعيش على وقت مستعار» أي انها تجاوزت المهلة الممنوحة لها. وبهذا أكدت رايس على تبعية هذه الحكومة، بل اعترفت بأنها لا تؤمن بالسيادة الوطنية العراقية قيد شعرة.

2ـ هناك انشقاق في صفوف الشعب الامريكي الذي انتخب جورج بوش. ففي آخر استفتاء للآراء رفض 68 % سياسة بوش الجديدة بينما أيدها 29 % فقط. (راجع تليتيكس للقناة الثالثة للتلفزيون البريطاني في 2007/1/12). بينما كتبت نيويورك تايمز في 2007/1/11 تقول: «في الحقيقة ان حرب بوش في العراق كارثة اعلنها هو وفشل فيها». وخرجت الجرائد والاذاعات المهمة ترفض انتشاله من ازمته.

3ـ هناك انشقاق داخل الحكومة الامريكية مما أدى الى طرد وزير الدفاع رامسفيلد وممثل امريكا في هيئة الامم المتحدة، بولتن. وهناك انشقاق بين الحكومة والكونغرس الذي يسيطر عليه الحزب الديمقراطي، بل خرج حتى السناتور الجمهوري جه ك هيغل ليصرح في 2007/1/11: «اذا تم تنفيذ خطة الرئيس (بوش) فسيكون ذلك أخطر تخبط في السياسة الخارجية منذ الحرب الفيتنامية».

4ـ هناك انشقاق في قيادة الجيش الامريكي حين وقف الجنرال جون أبي زيد وكبار مساعديه ضد زيادة عدد القوات الامريكية في العراق فتمت ازاحتهم بالرغم من خبرتهم الميدانية الطويلة ليحل محلهم جنرالات جدد تم ترفيعهم لاقناعهم بتنفيذ اوامر بوش. علماً بأن الجنرال الجديد بيتراوس سبق واعلن عن «عدم جدوى زيادة اعداد الجيش في أية حرب فاشلة».

5ـ رفضت الحكومة الامريكية تنفيذ اقتراحات لجنة بيكر ـ هاملتون، تلك التي بعثها بوش لدراسة الاوضاع الميدانية في الساحة العراقية والتي كان وزير الدفاع الجديد، روبرت غيتس، عضواً فيها، وعلماً بأن جيمس بيكر كان وزيراً للخارجية في حكم جورج بوش الأب وهو الذي قاد لجنة الدفاع عن بوش الابن حين تم تزييف الانتخابات الرئاسية في ولاية فلوريدا سنة 2000م.

6ـ هناك ايضاً اختلاف واضح بين الحكومتين البريطانية والامريكية. ففي الوقت الذي قرر بوش تقوية جيشه في العراق، أكدت وزيرة الخارجية البريطانية مارغريت بكيت على عزم حكومتها على سحب قسم من جيوشها من هناك. وهذا القرار يختلف كلياً عما فعلته الحكومة البريطانية أثناء الهجوم لتحطيم الفلوجة حيث بعثت بأفواجها الى مثلث الموت (المنطقة بين المحمودية واليوسفية والاسكندرية) للسيطرة على الوضع فيها اثناء انتقال الجيش الامريكي منها الى ساحة القتال.

7ـ هناك الآن انشقاق واضح داخل الكتلة الحاكمة في العراق، بين السيستاني والحكيم من جهة ضد التحالف القائم بين حزب الدعوة والكتلة الصدرية التي عاد وزراؤها الى الدوام بعد أن سبق واعلنت الكتلة «تعليق» فعالياتها الرسمية. اذ قرر السيستاني اعطاء الضوء الاخضر لموقف الربيعي في 2007/1/8 لضرب جيش المهدي بحجة القضاء على دور المليشيات السائبة، علما بأن هذا القرار لا يشمل بيشمركة الحزبين الكرديين ولا منظمة بدر، وخاصة أجزاءها التي تسللت داخل الشرطة والجيش بل اخترقت صفوف جيش المهدي لتقوم بالقتل الطائفي والقاء اللوم على الكتلة الصدرية، كما اعترفت بذلك حتى القيادة العسكرية الامريكية في بغداد. فالانذار الذي وجهه بوش ورايس للمالكي كان لدفعه لفك الارتباط مع الصدر، الامر الذي يؤدي الى استقالة الكتلة الصدرية من الحكومة فسقوطها.

8ـ بالرغم من انتقال افواج عديدة من بيشمركة رغة الحزبين الكرديين الى بغداد للمشاركة في ضرب المقاومة فيها، هناك انشقاق وانتكاسة في صفوف الحزبين بعد أن ضجر الشعب الكردي منهما، لكثرة سرقاتهما ولفشلهما في تجهيز الماء والكهرباء والبنزين للشعب. ثم أن سياسة الحزبين العنصرية في كركوك انتهت بانتشار الفوضى والجرائم في المدينة المنكوبة بهما وبالاحتلال، الى درجة أن الاكراد الذين سكنوا كركوك لعقود أخذوا ينهزمون منها بالجملة. ثم ان استقالة كتلة نوشيروان مصطفى، وهو الشخصية الثانية بعد جلال الطالباني، من حزبه دليل واضح على عمق الخلافات فيه. وبخصوص مشاركة الحزبين في الحرب العدوانية على المقاومة، حذرالقيادي الكردي عبد الخالق زنكنة (راجع «القدس العربي» في 2007/1/8) بأنها ستنتهي الى حرب بين العرب والاكراد. لقد أيده في ذلك الدكتور محمود عثمان حين صرح بالقول: «اننا نخشى أن يتحول الصراع في بغداد الى صراع كردي ـ عربي». («القدس العربي» في 2007/1/12)

9ـ فشلت الحكومة الطائفية في السيطرة على الأزمة القاتلة ولهذا أعلنت كونداليزا رايس عدم جدوى استمرار المالكي في الحكم، علماً بأنهما يدركان فقدان سلطة الحكومة خارج المنطقة الخضراء ويدركان ايضاً عمق الخلافات المنتشرة داخل هذه المنطقة الى درجة اعلان المالكي عن ضرورة تبديل الحكومة بل تصريحه للصحافة الاجنبية بأنه يكره البقاء في السلطة وسوف لا يرشح نفسه رئيساً للوزارة القادمة.

ومن الجهة الاخرى يخبرنا باتريك كوكبورن (في جريدة «الاندبندانت» في 2007/1/12) عن ادراك الشعب العراقي في الجنوب فشل الطائفية وحكومتها مما ادى الى «تقلص نفوذ السيستاني والحكيم بين الجماهير». هذا وسبق أن ركزت على تعاون هؤلاء مع المحتل لأسباب طائفية واقتصادية وذلك على صفحات جريدة القدس العربي بل مراراً على شاشة التلفزيون الايراني بالانكليزية والعربية والفارسية وشجعت الشعب الايراني الشقيق على «قطع العلاقات مع هؤلاء والتركيز على التعاون مع المقاومة العراقية الباسلة من السنة والشيعة وذلك دفاعاً عن نفسه ضد التهديدات الامريكية والاسرائيلية المتصاعدة».

هذه الحقائق تؤكد بوضوح على حدوث تبدل جوهري في الظروف الموضوعية والداخلية في العراق، مما يجبر المقاومة العراقية على دراسة خططها القتالية من جديد لكي تلائم التطورات التي طرأت على ساحة المعركة.

هناك حالة بارزة، يدركها الجميع، وهي أن المخابرات الامريكية، بقيادة نيغروبونتي ومشاركة موفق الربيعي، نجحت في شق الشعب العراقي طائفياً، الأمر الذي انتهى بظهور مقاومتين، الأولى سنية والثانية شيعية، بقيادة مقتدى الصدر. ثم خطب بوش ليعلن عن عزمه على ضربهما بحجة محاربة الارهاب. فمن الضروري اذن أن تتوحد المقاومتان بغية الدفاع عن النفس وعن العراق وشعبه المنكوب بالعدتي الاثيم. تبدأ عملية التوحيد عن طريق الدخول في المباحثات العميقة والطويلة بغية حل الخلافات التي فرضها الامريكان والسيستاني والحكيم. (راجع مذكرات بول بريمر للتعرف على دور السيستاني في توجيه بريمر لضرب جيش المهدي، علماً بأن الخلاف بين المرجعيات المختلفة ليست فقهية بل اقتصادية حيث تنال المرجعية دخلها من جمع « الخمس» من اتباعها والأرقام بالملايين). ثم ان التوحيد لا يعني توحيد القيادات منذ اللحظة الاولى بل يعني تنسيق فعالياتها.

كخطوة اولى يمكن الاتفاق على امتناع المقاومتين عن الاعتداء على الناس من الطرفين. يمكن تنفيذ هذه الخطوة الضرورية بقيام الطرفين بطرد المخربين والمأجورين الذين اخترقوا صفوف الطرفين لتعميق الخلاف الطائفي. لا شك أن الأغلبية الساحقة من العراقيين السنة أدركوا أن تحرير العراق لا يتم عن طريق قتل ما لا يقل عن نصف الشعب من الشيعة. ولا شك أن الشيعة أدركوا الآن بأن الأمريكان لم يحتلوا بلدهم للدفاع عنهم او لخلق حكومة، او برلمان، ذي أغلبية شيعية. ثم ان الحكومة الطائفية فشلت فشلاً ذريعاً في انقاذ الشيعة من الموت بالجملة. لقد شاهد العالم كيف رفضت امريكا اعطاء رئاسة الحكومة الى الدكتور ابراهيم الجعفري بالرغم من قيامه باعطاء الضوء الاخضر لامريكا لتحطيم الفلوجة وتلعفر والقائم وعشرات من المدن والقصبات. والآن اظهرت كوندو ليزا رايس غضبها لأن المالكي يتردد، بل يتململ، من ضرب جيش المهدي بغية الحفاظ على جبهته مع الصدر. وفي صدد تقريب وجهات نظر طرفي المقاومة يستطيع المؤتمر الوطني التأسيسي وآيات الله البغدادي والمؤيد والمالكي القيام بدور ايجابي كبير في عملية الوساطة الضرورية.

ثم هناك مشكلة الدعاية ضد ايران والمنتشرة عند بعض القوميين. والمفهوم هو أن الخلاف بين العراق وايران جاء تأريخياً على يد شاه ايران حين تحمل الدور الرئيسي في حلف بغداد لاسقاط حكومة عبد الكريم قاسم عن طريق مد الحزب الكردي لمصطفى البارزاني بالمال والسلاح وتعيين الجنرال ورهام لقيادة الحركة المسلحة كما شرح جلال الطالباني تفاصيله في مجلة الوسط (العدد 357 في 1998/11/20) بعد ذاك اتفق الحزب الكردي مع حزب البعث سنة 1962 بعد اللقاء الذي حدث بين «المرحوم صالح اليوسفي، عضو المكتب السياسي للحزب (الكردي) وممثل البعثيين علي صالح السعدي .... وتم الاتفاق على أن ندعمهم في حال قيامهم بعمل عسكري ضد عبدالكريم قاسم. وفي الوقت نفسه اتصل المرحوم طاهر يحيى بسكرتير حزبنا ابراهيم احمد، عن طريق المقدم الكردي كريم قرني، واخبره أن هناك حركة تجمع القوميين والبعثيين غايتها اطاحة عبدالكريم قاسم والاتفاق معنا. قدم الاستاذ ابراهيم أحمد شروطاً .... جاء جواب طاهر يحيى بالايجاب» كما صرح بذلك جلال الطالباني بالنص في مقابلته في مجلة «الوسط» (العدد 358، في 1998/12/7، الصفحة 28).

ثم تعمق الخلاف نتيجة التدخل الاسرائيلي والامريكي لحث الشاه على السيطرة على الضفة الستراتيجية الشرقية من شط العرب. الا أن الطامة الكبرى جاءت بعد الثورة الايرانية وانتهت بالحرب التي ادت الى مقتل مليون عراقي وايراني. جاءت هذه الحرب نتيجة لمغبة حكام البلدين ورفضهم الاتفاق على محاربة امريكا وشركاتها التي تستغل الشعبين دون رحمة، وكذلك كنتيجة مباشرة لتدخل كيسنجر ورامسفيلد لحث العراق ومساعدته بالاسلحة الكيمياوية وكذلك نتيجة لسفر مكفارلين والكولونيل اوليفر نورث الى طهران لاقناع الحكومة الايرانية بعزم امريكا على التخلص من الحكم العراقي القائم عن طريق الانقلاب العسكري. (راجع التفاصيل في منشورات الكونغرس الامريكي الخاصة باستنطاق العقيد نورث، وراجع ايضاً كمال مجيد، النفط والاكراد، منشورات دار الحكمة، 1997الصفحة 89).

وبعد هذه الفاجعة الدموية تعلم الشعبان مغبة العمل مع القطب الاوحد، الا أن المستفيدين، سياسياً واقتصادياً، من الحرب في العراق وايران ما زالوا يحلمون بالماضي. تمت الاشارة اعلاه الى بعض تصرفات السيستاني والحكيم في خدمة الاحتلال وهناك ايضاً داخل ايران كتلة كبيرة من المستفيدين من حركة زيارة العتبات المقدسة، بينها المصابون بالتعصب الطائفي. فلا بد من التمسك بالتوازن العادل والاشارة الى الدور السلبي لما يقوم به بعض القومين، مستفيدين من التوتر الطائفي، في الالحاح على استمرار العداء بين الشعبين الشقيقين عن طريق الادعاء بوجود حربين في العراق، واحدة ضد الاحتلال الامريكي واخرى ضد ايران التي يدعون، دون تقديم برهان واحد، بانها تحتل جنوب العراق بالتنسيق مع الامريكان! ثم هناك العنصريون الذين ما زالوا يحلمون بامكانية الاستفادة من اطماع امريكا لضرب ايران ويأملون بأنهم سيلعبون دوراً متواضعاً معها في تحطيم عدوتهم التاريخية. لا يختلف هؤلاء عن اتباع السيستاني والحكيم في تطرفهم ويرفضون الاعتراف بأن ادعاءاتهم تخدم العدو الامريكي لا غيره وهم لا يتعلمون مما جلبه هذا العدو من المصائب على الشعبين باستخدام سياسة «فرق تسد».

ان وجود الطرفين على الساحة العراقية بل حتى في صفوف المقاومة يثبت عمق الفاجعة ويستلزم المبادرة بثورة فكرية جبارة وطويلة ضد التطرف والتعصب العنصري والطائفي اللذين جلبا المآسي لشعبنا. تلقي هذه الثورة المهمة العظمى على عاتق العراقيين الطيبين، وما اكثرهم بين الاغلبية الصامتة، للقيام بدورهم الشريف في تثقيف الجهلة (كانت الامية في العراق 38 % سنة 1998 حسب احصائيات هيئة الامم وانتشرت باطراد بعد هذا التأريخ نتيجة الحصار والحرب والاحتلال) فهناك الآن ضرورة ماسة لانقاذ هؤلاء، وغيرهم، من شر الطائفية والعنصرية اللتين ابتليا بهما بل بصورة دموية منذ الاحتلال. كما هناك مهمة توجيه النقد الايجابي، بنعومة، الى اطراف المقاومة لتنظيف صفوفها من التعصب ومن التعلق بالافكار العتيقة التي تضر شعبنا. فبعد حوالي اربع سنوات لا بد من اعادة النظر في كافة جوانب تصرفاتها.

يدرك شعبنا موقع العراق الجغرافي والتصاقه بايران وتركيا ويدرك ايضاً نسيجه القومي والديني والطائفي وضرورة الاعتراف بالوجود العربي والكردي والتركماني ووجود السنة والشيعة والمسيحيين والصابئة واليزيديين والذين دبروا بسلام، عبر القرون، حياة التعايش والتزاوج فيما بينهم، بل دخلوا النضال الموحد ضد الاحتلال البريطاني وضد حلف بغداد ونجحوا في تنظيف البلاد من رجسهما وذلك منذ ثورة العشرين وحتى ثورة 14 تموز 1958. لقد وقفوا موحدين ضد العدوان الامريكي أثناء وبعد حرب الكويت وضد الحصار الاقتصادي الذي قضى على حياة نصف مليون طفل، نتيجة الجوع والسرطان اليورانيومي، وتمكنت الايدي العراقية القديرة بسرعة اسطورية، بالرغم من هذا الحصار، من اعادة بناء ما خربه المعتدون في تلك الحرب الجائرة. هذه الحقائق تؤكد على القدرة العظيمة لشعبنا حين يتحد ضد العدو العطشان للنفط. وها هو العدو الآن، بعد حوالي اربع سنوات من الحرب والاحتلال، مصاب بالفشل والتقهقر والانشقاق. فلنرفض العنصرية والطائفية لانقاذ انفسنا واهلنا من الموت الرخيص. ولتتحد كافة اطراف المقاومة الباسلة وتوجه ضربتها الجبارة لافشال خطة بوش اليائسة وليتقدم شعبنا خطوة اخرى نحو النصر والتحرر.

* كاتب من العراق يقيم في لندن

فسادكم وعنصريتكم ووطنيتنا!

زهير اندراوس*

■ الفساد في اسرائيل بات مستشرياً ومستفحلاً، فلا يكاد يمر يوم بدون فضيحة جديدة، حتى يخيل للبعض أنّ الاستقامة أصبحت في خبر كان. رئيس الدولة متهم بالاغتصاب ويرفض الاستقالة من منصبه، على ما يبدو من منطلق «فيش حدا أحسن من حدا في هذه الدولة الديمقراطية». رئيس الحكومة ايهود اولمرت، هو الآخر متورط في قضايا فساد ورشى، والغريب العجيب انه من على منصة مؤتمر هرتسليا يوجه دعوة حازمة وصارمة الى موشيه كتساف لترك ديوان الرئاسة فوراً. تفاقم الفساد في المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة تحول الى ثقافة، فالفاسد والمرتشي والمتهم بتنفيذ اعتداءات جنسية، يبقى في السلطة والحكم، الأمر الذي يدل على أنّ هذا المجتمع هو مجتمع ماتوشئيستي وشوفيني، يسير بخطى حثيثة نحو التفكك والانحلال والانحطاط الخلقي.

في العام 1977 نشرت مجلة «هعولام هزيه»، التي كان يرأس تحريرها النائب السابق اوري افنيري، تحقيقاً عن وزير الاسكان آنذاك ابراهام عوفر، من حزب العمال، الأمر الذي دفع الشرطة الى الاعلان عن نيتها الشروع في التحقيق مع الوزير. عوفر استبق الأحداث وأقدم على الانتحار برصاصة من مسدسه. وبعد الحادث التراجيدي ثبت أنّ الادعاءات حول قيامه بسرقة أموال من خزينة الدولة وتحويلها الى حزبه كانت عارية عن الصحة. نحن لا نطلب من افراد عصابة الاجرام المنظم في «واحة الديمقراطية» أن ينتحروا جماعيا، ولكننا نورد هذه القصة لكي نؤكد لهم بان الفساد أصبح القاعدة وليس الاستثناء، بمعنى ان لم تكن فاسدا، فلا مكان لك في نادي المرتشين والمغتصبين. علاوة على ذلك، ففي العام نفسه جرت الانتخابات التشريعية، وتمكن حزب الليكود من التغلب على حزب العمل لأول مرة منذ اقامة الدولة في العام 1948، لان المواطنين سئموا من سلطة حزب العمال. أما الآن فان الوضع اختلف وأصبح الخيار لدى المواطن الاسرائيلي محدوداً بين التصويت لحزب فاسد أو التصويت لحزب فاسد أكثر، ولذلك فانه من الصعب، ان لم يكن مستحيلاً، أن يتغير الوضع في اسرائيل، لان كل حزب له فاسدوه، وبالتالي نقترح على حكام هذه الدولة الاعلان عن اسرائيل جمهورية موز، لان ما يجري فيها هذه الأيام ينطبق تماما على التعريف الأصلي لهذا المصطلح: جمهورية الموز في العلاقات الدولية يقصد بها أنها دولة لا سيادة لها أو ضعيفة أو غير ديمقراطية أو ينتشر فيها الفساد أو هذه العوامل مجتمعة.

من ناحية أخرى، لا غضاضة في أن نذكر أنفسنا ونذكر العالم بما فعلته دولة الاحتلال لاجتثاث ظاهرة الفساد في السلطة الوطنية الفلسطينية، عندما كان الرئيس الراحل ياسر عرفات، رئيسها. أقاموا الدنيا ولم يقعدوها، وتمكنوا من تحديد منظومة مالية لكي لا تذهب أموال الدول المانحة الى أماكن غير مرغوب فيها. والآن يقف هذا المجتمع الدولي موقف المتفرج، ولم نسمع تصريحا عن موقفه من الفساد المتنامي في الدولة العبرية، الأمر الذي يقطع الشك باليقين بان هذا العالم هو عالم منافق، يتخذ من الرياء سياسة يستخدمها لتنفيذ مآربه، فعندما كانوا يتحدثون عن الفساد في السلطة، لم يقصدوا الحفاظ على الشعب الذي يرزح تحت نير الاحتلال، انما أرادوا من وراء ذلك مساعدة عدد من القيادات العربية المتواطئة ومن الفلسطينيين، على النيل من الرئيس عرفات، لأنه رفض الاملاءات الاسرائيلية والأمريكية والعربية والأوروبية، وظلّ حتى آخر يوم من أيامه متمسكاً بالثوابت الوطنية.

وهناك قضية أخرى نرى لزاماً على أنفسنا التطرق اليها وبالبنط العريض: التحقيق يجري مع حكام تل أبيب على قضايا جنس وسرقة أموال، وبموازاة ذلك تجري الشرطة التحقيقات مع عدد من النواب العرب في الكنيست بتهمة السفر الى سورية للتواصل مع أبناء الأمة العربية التي ينتمون اليها. وبغض النظر عن الموقف من انتخابات الكنيست، مقاطعتها أو المشاركة فيها، فان التحقيق مع النواب العرب على زيارة «دولة عدو» هي شهادة شرف لهم جميعا، لان التواصل مع أبناء الأمة الواحدة ليس جناية الا في اسرائيل، كما أنّ التحقيق معهم هو الرد الكافي والشافي لعصابة العنصريين والحاقدين في هذه الديار.

أما اكبر المفارقات في هذه الدولة فهي: كلما ارتفع منسوب الفساد في المؤسسة الحاكمة، يرتفع أيضاً منسوب العنصريين في اسرائيل. فهل هناك علاقة بين الفساد والعنصرية، أو أنّ العنصرية ضد أصحاب الأرض الاصلانيين أصبحت الملاذ الأخير أمام عصابات الاجرام المنظم للتخلص من قضايا النهب والسلب والرشى والفساد؟

* رئيس تحرير صحيفة «كل العرب» الصادرة في الناصرة

اليمين الامريكي يكافح التطرف الاسلامي بتطرف ديني اخطر

نهى المصري*

■ قال المستشار الألماني السابق غيرهارد شرودر، في كتابه «قرارات: حياتي في السياسة» «نحن نعطي أنفسنا حق انتقاد معظم الدول الاسلامية، لعدم الفصل بوضوح بين دوراالدين في المجتمعات وسلطة القانون... لكننا أخفقنا في الإنتباه إلى ذلك في الولايات المتحدة.... المسيحيون المتشددون وتفسيرهم للإنجيل لهم نزعات مماثلة....» هذا التوصيف الذي يتناول بوش وإدارته، هو ليس حالة متفردة بتلك الفئة، بل يذكرنا ذلك بالرئيس الأمريكي السابق رونالد ريغن (1981 ـ 1989)، الذي قال وفي أكثر من مناسبة: «لا يوجد شئ اسمه الفصل بين الدين والسياسة، وأن القائلين بهذا الفصل، لا يفهمون القيم التى قام عليها المجتمع الأمريكي» يبدو أن هذه المعادلة ليست مجرد رأي، بل هي منظومة من القيم والمعتقدات، تعاقبت عليها الإدارات الأمريكية وإن كانت بأشكال مختلفة، وبدرجات متفاوتة.

«إن ريجان كرئيس، أظهر التزاماً بالاضطلاع بواجباته، وفقاً لإرادة الله، كما يجب أن يفعل كل مؤمن فى منصب رفيع، لقد شعر بذلك الالتزام، خصوصاً فى سعيه إلى بناء الجبروت العسكرى للولايات المتحدة وحلفائها..» هذا التوصيف جاء على لسان (جيمس ملز)، الذى كان رئيساً لمجلس شيوخ ولاية كاليفورنيا، فى مقال نشرتها مجلة (سان دييجو ماجازين) في آب (اغسطس) 1985.

هذا التوصيف والذي يعكس حالة التجلي التي كللت سياسات ريغن، تذكرنا إلى حد بعيد بخطاب بوش المعتق، والذي تفوق فيه على ريغن بطقوسه الغوغائية. لقد دأب بوش على التزين بقناع الطوباوية، عند كل افتتاح لمقصلة جديدة، وذلك احتفاءا بتخرج دفعة «مغاوير» أخرى من مدرسته الاستعمارية، دفعة من «آكلي مقدرات البشر»، وبالرغم من ذلك ها هو يكلل صورته المعدلة إعلاميا بالكشف عن أن حربه على «الإرهاب/ الإسلام » هي إنما وحي من عند ربه! ـ الخاص به طبعا لأنه لا يوجد «اله» حتى ولو كان من حلوى، يدعو عباده إلى محاربة عقيدة، يؤمن بها ربع سكان الكرة الأرضية تقريبا ـ هذا «الورع» وما نتج عنه من مآسي رغم ضخامة شعاراته يبدو انه لم يخدع الطرف الآخر من الغرب أوعلى الأقل من أبت مصالحه ذلك، اذ أعرب المستشار الألماني السابق غيرهارد شرودر في كتابه الأخير عن شكوكه اتجاه «إيمان» بوش لا سيما عندما يصف نفسه «كرجل يتقي الله»!

هذه الشكوك تعود ربما الى وعي الغرب التام، بأن هذا النوع من التقى، هو الذي جعل الكون مرتعا لإحلام، بفضل أضغاثها، استعاد التعصب، هذا القاتل الصامت صوته وراح يتناسل خرابا...

ولعل السؤال الذي يفرض نفسه هو، هذا التقاطع في العلاقة بين الدين والسياسة في الولايات المتحدة، لماذا يصبح كوصمة العار خارجها، بمعنى آخر، هذا المباح والمتاح لها، لماذا يحرَّم على من يخالفها أوربما عمن يختلف عنها؟ وهل يمكن فصل ذلك عن جملة التغييرات التي يفرضها «المعسكر الأمريكي» اليوم على دولنا العربية والإسلامية؟

لقد وجهت الولايات المتحدة انتقادات حادة، بل واتهامات بالتخلف والإجرام، لكل من سولت له نفسه الإقراربالتزامه بأحكام الشريعة الإسلامية، سواء كان هذا الطرف دولة، أو هيئة اجتماعية، أو حتى فرد من الأفراد الذين أصبحوا بعد ذاك الإقرار، مشروع «لقمة سائغة» بين أنياب جلادي سجن غوانتنمو والسجون السرية الأخرى، الموزعة في أرجاء المعمورة، برعاية المجتمع الدولي، ولكن هل يبرر هذا التعسف أداء العديد من الدول العربية والاسلامية، التي خلعت جلدها وحبست ما تبقى من أنفاسها، لكى تصبح بعد إملاءات «الحمية» الأمريكية، كريشة في مهب الريح؟

لقد ذهبت تلك الدول الى ما هو أخطر من ذلك، حيث قامت بتقديم فروض الطاعة « لعفريت الصندوق» عبر سن جملة من القوانين، التي دعت وبشكل محموم إلى تغيير مناهج التعليم في دولها، وخاصة تلك الجوانب المتعلقة بالإسلام وشريعته وقيمه، وذلك تحت شعارات جوفاء، لعل أسخفها دعوى التغيير لأهداف «إصلاحية» بالدرجة الاولى! في هذا الفضاء استقرت شعارات تلك السلطات المسبية لتعلن عن صحوة، ما هي في الواقع سوى صحوة إرتكاسية مؤقتة، من غيبوبة موت دماغي مرجح، لجسد الأمة!

وبالطبع مطلوب منا هنا أن نصدق نحن الشعوب المحكومة بثلاث ممنوعات ولاءاتها، وهي » لا ترى، لا تسمع، لا تتكلم»، أن صقور واشنطن رصدوا، 145 مليون دولار، لتحديث العالم الإسلامي ونشر الديمقراطية ، وليس» لعلمنة» مناهج التعليم الإسلامي، وعلينا أن نصدق أن مساعي الإدارة الأمريكية الحثيثة لتغيير ثوابت وأصول الدين الاسلامي، هي وليدة صدمة » إرهاب » الحادي عشر من سبتمبر، لأن «الإسلام» دين يحض على الإرهاب، كما يحلو للغرب ان يدعي، وليس لأن القضاء على الإسلام كان هدفا على مدى الحملات الصليبية المتعاقبة والمستمرة إلى الآن، ولكن بأشكال وبأساليب حديثة ومبتكرة لكى تتناسب مع العصر ومتغيراته.

متى سنتحلى بالجرأة الكافية لتسمية الأشياء بأسمائها؟ لقد ابتكر لنا الغرب خصيصا، أساليب صيد متنوعة، وذلك على مدى عقود متعاقبة، توالى خلالها علينا قتلا وظلما واحتلالا، وجميعها تحمل مواصفات» تقديم العون بهدف التطوير»، ولعل المشاريع الخيرية الكبرى، التي لا تحصى والتي انشئت بهدف تطويعنا وتدويرنا كمنتج بمواصفات جديدة، هي خير دليل على ذلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر،عندما انشئت «منظمة الإسلام والغرب» عام 1979 تحت رعاية منظمة الثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة «يونيسكو»، كان أول وأهم أهدافها هو، «علمنة التعليم وجمعها في إطار واحد»؟ ـ العلمنة هنا بهدف إقصاء الدين عن منظومتنا الاجتماعية والسياسة، وليس بهدف تطوير العقل العلمي العربي، كما هى الشعارات الكبرى، لأنه من المفترض أن لا يعيق أحدهما الآخر وقبل ذلك بكثير قامت حركات التغريب والإستشراق، بدور الحاوي أو الساحر، الذي خلق من المتناقضات حالة ملتبسة، رغم بعدها عن الواقع،غير أنه قام بتدويرها وتعليبها وتقديمها بشكل مختلف، لكى يقوم بعد ذلك باسم تلك الإغراءات البراقة، بفرضها كعنصر أساسي بل وكحاجة ملحة لدخولنا الى ركب التقدم!

كل هذا والمفروض علينا أن نصدق أن للنعجة مستقبل باهر في أحضان الثعلب.

أما من يتحمل مسؤولية زحمة الفوضى هذه؟..لا شك أنه سؤال ملتبس، لأن إقصاء أنفسنا عن دائرة الإتهام، تجعلنا كمن يتخفى خلف إصبع مستعار، لأننا نعلم جميعا أن قوة العدو الساهر تنبع من ضعف غياب شعوبنا عن الساحة الحقيقية للحياة، وذلك بفعل اعتقالها في دوائر الحاجة والجوع والذل، هذه الحروب الصغيرة المفتعلة من قبل رجال السلطة في دولنا، غيبتنا عن المعركة الحقيقية، فبتنا نحن والسلطة عالة على دولنا أوعلى ما تبقى منها،لكى نصبح بذلك طريدة سهلة.

وربما بسبب هذا الخواء المتأصل فينا والمتوارث بيننا، لم يعد الفك المفترس يألوا جهدا لأخفاء أنيابه بعد أن تحول العالم العربي والإسلامي إلى مزرعة لا تأوي سوى الدجاج، ترى هل من خلاص يبعدنا عن مسار الطوفان الجارف؟

عندما يؤكد ريغن يايمان راسخ أنه «لا يوجد شئ إسمه الفصل بين الدين والسياسة»... وعندما يجعل بوش هذا الإيمان والإعتبار حقا إلهيا لفئة واحدة فقط، اختارها الله، لتقصي الآخر عن ساحة الحق بالوجود وحرية المعتقد.. هذا يعني أن الأمر أخطر مما نتصور، ولكن توصيفه قد يكون خارج منطق التوقع كيف ؟

قال ريغن أكثر من مرة «إن نبوءة هرمجدون عقيدة ما زالت تسكن قلبه» وهي نبوءة توراتية، تتحدث عن حرب نووية ستنشب في فلسطين، وسينتصر فيها الأخيار على الأشرار (المسلمين)، وهذه الحرب ستمهد لظهور المسيح المخلص، الذي سيعد «الأخيار» بألف عام من السعادة، بعد القضاء على الفئة الضالة تماما.

هذه هي ملامح النهاية السعيدة كما ينتظرها البعض، للحمة قد نكون نحن أبطالها المأساويين من حيث لا ندري، فالأدوار موزعة والعرض مستمر، والمشاهدين كثر ونهاية القصة لفكرة قد تكون صحيحة فقط في عقول المؤمنين بها، قد باتت وشيكة، على الأقل هذا ما يؤكد عليه البعض.. ولكن هل يعقل أن يكون هذا السيناريو هو السياق الذي يحرك أجندة بوش ألا وهو تمهيد الطريق لظهور المسيح المنتظر؟

في المقابل ما الذي يمكن أن يفهم من تصريحات الرئيس الإيراني أحمدي نجاد؟ لقد أعلن أمام حشد من الخطباء الإيرانيين «أن المهمة الرئيسية لحكومته تتلخص في تمهيد الطريق للعودة المجيدة للإمام المهدي» التي يؤكد المقربين منه أنها ستحدث في السنتين المقبلتين!

قد يعتبر البعض أن هذه التصريحات هي للإستهلاك المحلي ليس إلا، ولكن ما يحدث في العراق اليوم من قتل مذهبي وتدمير لدور العبادة، وتهجير للسنة من مناطق بعينها، عبر القوى الشيعية كما بات معروفا، يعتبرها البعض تمهيدا لظهور المهدي، لا سيما بعد أن اصبحت إيران اليوم لاعبا فاعلا على الساحة الدولية، بل طرفا يحمل الكثير من القوة والسيطرة والتهديد،على الأقل حسب توصيف الإدارة الأمريكية، وهذا كفيلا بتفخيخ الأرض لنيل المطالب خارج سياق التمني.

إن الإيمان بظهور المخلص، سواء كان المسيح أو المهدي هو أمر مشترك بين مختلف الأديان، لكن المتغير هنا قد يكون في أجندة المخلص نفسه، الذي من المفترض أن يأتي بالخلاص للجميع، ولكن أن يتحول إلى طرف لا يخدم سوى فئة واحدة، هذا المعتقد سيبث الحياة في شرايين التطرف من جديد، وأمر كهذا لن يجلب سوى الخراب والدمار، لا سيما عندما يتوهم البعض، أن سفك الدماء هو أمر ملح لتمهيد الطريق لظهور المخلص!

إذن تمزيق الكون بين الخير والشر، وفرض معتقدات تشبه الملاحم، واقتلاع الآخر من ذاكرة تاريخ لن يتسع بعد اليوم سوى لنوع واحد من البشر، هذه «الفوضى الخلاقة» كما يحلو للبعض أن يعتبر هل اكتسبت شرعيتها من أسر المستقبل خلف أنياب «خرافة»؟!

سواء كان ذلك بفعل «خرافة» أو «نبوءة»، إعتقادات كهذه قد «تقود» المؤمنين بها إلى معبد، أو مصلى في دار عبادة أو حتى في هيكل، ولكنها حكما لا تستطيع ان «تقود» الكون ولا حتى مجرد «دولة» إلى أي عمار، بل النتيجة حكما ستكون خرابا شاملا، لأنها أحادية الجانب، الأمر الذي يجعلها بلغة الذاكرة والتاريخ ديكتاتورية بكل المقاييس، فالديكتاتورية تولد وتنمو في رحم إلغاء الآخر وإبادته، فقط لإختلافه، والصورة هنا وللأسف تكاد تكون مكتملة.

إذا أي معجزة تستطيع أن تخلصنا من لعبة تعليب الزمن، والعبث بماهية المقدسات، وتأويلها حسب الطلب؟

يبدو أن هذه المتغيرات، ستدفعنا إلى تبني نظرية صموئيل هنتنغتون الشهيرة «صراع الحضارات»، التي يرى فيها أن العلاقات بين الدول خلال العقد المقبل، سيطغى عليها طابع العداء، وذلك بحكم تباين أديانها وثقافاتها.

الصورة تبدو مطابقة إلى حد بعيد لواقع الاحداث اليوم، مع متغير بسيط ربما وهو، أن عنوان المرحلة قد يكون وبلا منازع «صراع الخرافات» أو النبوءات وليس «صراع الحضارات»، ما دامت الدعوة لغياب العقل عبر اغتياله أصبحت شبه عامة.

* كاتبة من فلسطين
noha_masri@hotmail.com

حل مآسي التاريخ بالاعتذاريات!

توفيق الحاج*

■ كنت ولا زلت من عشاق الاعتذاريات في الأدب العربي القديم لما فيها من فرادة الفكرة ونبل المطلب ورقة العبارة، ولكني اليوم أرى واسمع اعتذاريات طارئة تعبر عن أدب سياسي جديد غاية في النفاق والانتهازية ومفعمة بمغالطات فاقعة تصل الى درجة المفارقات الكوميدية والمقارنات التراجيد